# تفسير سورة يونس

## كاملة بأسلوب سهل جداً

رامي حنفي محمود

الألوكة
www.alukah.net

# سلسلة كيف نفهم القرآن؟ (*)

## (تفسير سورة يونس بأسلوب بسيط جداً)

## ١. الربع الأول من سورة يونس

الآية ١: ﴿الر﴾: سَبَقَ الكلام عن الحروف المُقطَّعة في أول سورة البقرة، (واعلم أنّ هذه الحروف تُقرأ هكذا: ألِف لام را)، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ يعني: هذه هي آيات الكتاب المُشتمِل على الحِكَم العظيمة، المُحكَم الذي لا يَأتيه الباطل.

الآية ٢: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أمْرًا ﴿عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم، الذي أوحينا إليه ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ عقابَ الله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ يعني إنّ لهم أجرًا حسنًا – بما قدَّموه من الإيمان والعمل الصالح –، يَلقونه ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في الدار الآخرة؟

♦ فلَمَّا جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الوَحْي وتَلاهُ عليهم: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾: أي قال المُنكِرون: إنَّ محمدًا ساحر، وما جاءَ به سِحرٌ واضح، وقد كَذَبوا في ذلك، فإنه لو كانَ ساحراً، لَسَحَرَهم لِيؤمنوا به، حتى يستريحَ هو وأصحابه من ذلك الإيذاء والتعذيب الذي يَلقونه منهم، وحتى لا يُخرجوهم مِن بلدهم وديارهم وأموالهم كما فعلوا.

♦ وكذلك فإنه لو كانَ ساحراً، لَعَلِمَ السَحَرة على عهده أنه ساحر (كَلَبِيد بن الأعصم اليهودي وغيره)، ولَفَضَحوا حقيقته أمام الناس، فلَمَّا لم يفعلوا – رغم ما يَحدث للنبي من معجزاتٍ عظيمة

---

* وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي "، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبي بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

(كانشقاق القمر وغيرها)، ورغم ما للقرآن من بلاغةٍ وقوةٍ في البيان، ورغم عَجْز السَحَرة والمشركين في أن يَأتوا بِمِثل ما أتى به - عُلِمَ أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسولٌ من عند اللهِ يُوحَى إليه.

الآية ٣: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ أيها الناس هو ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ - أي عَلا وارتفع - ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواءً يَليقُ بجلاله وعظمته، ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: أي يُدَبِّر أمورَ خلقه، ولا يُعارضه في قضائه أحد، ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾: أي لا يَشفع عنده شافعٌ يوم القيامة إلا مِن بعد أن يَأذن له بالشفاعة (وذلك لِعَظَمته وعزة سلطانه)، فكيف إذاً تعبدونَ – أيها المشركون – هذه الأصنام وتنتظرون شفاعتها لكم؟ !

﴿ذَلِكُمُ﴾ أي المُتصِّف بهذه الصفات – الخَلق والتدبير والعُلُوّ والعظمة – هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المستحق وحده للعبادة ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ ولا تُشرِكوا به شيئاً من مخلوقاته، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: يعني أفلا تتعظون وتتفكَّرونَ فيما ينفعكم؟

الآية ٤: ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي: وبهذا وَعَدَكُم اللهُ وعداً حقاً، لابد مِن إتمامه، إذ ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾: أي هو وحده الذي يستطيعُ أن يَبدأ إيجاد الخلق من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ - كهيئته الأولى – وذلك بعد الموت، (فالقادرُ على ابتداء الخلق: قادرٌ على إعادته).

♦ ثم وَضَّحَ سبحانه الحِكمة من البَعث يوم القيامة، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي لِيَجزيهم – على إيمانهم وأعمالهم الصالحة – جزاءً قد بَيَّنَهُ سبحانه لعباده، وأخبَرَهم أنه قد أَخفَى لهم من النعيم ما بِهِ تقِرُّ أعينهم وتَسعَدُ قلوبهم، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي شرابٌ مِن ماءٍ شديد الحرارة، يَشوي الوجوه ويُقَطِّع الأمعاء، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مِن مُختلَف أصناف العذاب، جزاءً ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (وهذا من تمام عَدْلِهِ سبحانه، إذ إنه لو تَرَكَ الناسَ بغير جزاء، لاَستوى العاصي والمُطيع، وربما كان بعضُ العاصين - في هذه الدنيا – أحسنَ حالاً من المُطيعين، فكانَ من الحِكمة أن يَلقى كُلُّ عاملٍ جزاءَ عمله).

♦ وقد خَصَّ سبحانه جزاءَ المؤمنين بقوله: ﴿بالقِسط﴾ أي بالعدل، مع أنّ الجزاء كله عدل – بل ربما كانت الزيادة في ثواب المؤمنين فضلاً زائداً على العدل – وذلك لإشعار المؤمنين بأنّ جزاءهم قد استحقوه بما عملوا، وليس تفَضُّلاً منه سبحانه عليهم، وهذا مِن أعظم الكرم.

♦ واعلم أنه سبحانه قد خَصَّ شراب الحميم بالذِكر – من بين أنواع العذاب – لأنه أكْرَه أنواع العذاب على النفوس، ولأنهم سيكونون – لِشِدَّة عطشهم – في أشد الحاجة إلى الماء، فيَضطروا إلى شُربه رغم سخونته وغليانه، فيكونُ ذلك ذلاً وإهانةً لهم، واللهُ أعلم.

الآية ٥: ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (والفرق بين الضياء والنور: أن الضياء هو الضوء الصادر مِن مصدره مُباشرَةً، فيكون الجسم مُضِيء بذاته، وأما النور: فهو الضوء المنعكس عن مصدر معين، فالقمر ليس مُنيراً بذاته، بل بانعكاس ضوء الشمس عليه، ولعل هذا يُفسر قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، فآية الليل هي القمر، فجعله اللهُ تعالى مُظلماً، وجعل آية النهار – وهي الشمس – مضيئة، فاستفاد القمر من ضيائها فأصبح مُنيراً، واللهُ أعلم.

﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾: أي جعل للقمر منازل يَسيرُ فيها، (والمراد بالمنازل هنا: المواقع التي يَظهر فيها القمر في كل ليلة من الشهر، وهي ثمانية وعشرون مَنزلة، يَنتقل فيها القمر مِن هلال إلى بدر، ثم يعودُ إلى هلال مرة أخرى، وهكذا).

♦ وقد فَعَلَ سبحانه ذلك ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ إذ إنه بالقمر تُعرَفُ الأيام والشهور، وبالتالي يتم حساب السنين، ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: أي ما خَلَقَ اللهُ تعالى الشمس والقمر إلا لِحِكمةٍ عظيمة (لأنّ عظمة هذه المخلوقات تدل على عظمة خالقها وكمال قدرته)، (وما فيها من الانتظام والإتقان والإحكام يدل على كمال حِكمته)، (وما فيها من المنافع الضرورية لِخَلقه يدل على سِعَة رحمته بالخلق، وعلى سِعَة عِلمه بمصالحهم، وأنه الإله الحق الذي يَجب أن يُعبَد ولا يُعبَد غيره)، ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي يُبَيِّن سبحانه الحُجَج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يَعلمونَ الحِكمة من إبداع الخلق، فلذلك يَتَّبعون الحق – بمجرد ظهوره – ولا يَتَّبعونَ أهوائهم.

الآية ٦: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ مِن الطُول والقِصَر، والظلمة والنور، وتعاقبهما بأن يَخلُف كلٌّ منهما الآخر، ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من عجائب المخلوقات، وما

فيهما أيضاً من إبداعٍ ونظام: ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي علامات واضحة تدل على عظمة الخالق سبحانه، وعلى كماله وجماله وقوة سلطانه، فلذلك يَجب أن يُعبَدَ سبحانه بِحُبِّه غاية الحب، وبالخوف منه غاية الخوف، وبالرجاء - في رحمته - غاية الرجاء، وأن يُذكَرَ فلا يُنسَى، وأن يُشكَرَ فلا يُكفَر، وأن يُطاعَ فلا يُعصَى، ولذلك قال بعدها: ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ يعني إنَّ الذين يَنتفعونَ بهذه الآيات هم الذين يَتقون عذابَ اللهِ وسخطه، فيفعلون أوامره ويَجتنبونَ مَعاصيه.

الآية ٧، والآية ٨: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾: أي لا يَنتظرون لقائنا في الآخرة للحساب والجزاء (لأنهم لا يؤمنون بذلك)، ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ عِوَضًا عن الآخرة ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وأحَبُّوها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ أي لا يَلتفتون إلى آيات القرآن وحُجَجه، ولا يَتفكرون في آيات اللهِ الكونية ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي مَقرُّهم نارُ جهنم؛ جزاءً ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في حياتهم من الشرك والمعاصي.

الآية ٩، والآية ١٠: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي يُوفقهم ربهم إلى العمل المُوصِل إلى جَنَّته - بسبب إيمانهم - ثم يُثيبهم بدخول الجنة، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري الأنهار مِن تحت بَساتينهم وقصورهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ أي يَطلبون ما يَشاءونه فيها بكلمة: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ وهو ثناءٌ على اللهِ تعالى، والغرض منه: طلب إفاضة النعيم من الطعام والشراب وغيره، ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ أي وتحية اللهِ وملائكته لهم - وكذلك تحية بعضهم لبعضٍ في الجنة - هي قولهم: ﴿سَلَامٌ﴾، ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ﴾ يعني: وآخر دعائهم - بعد انتهائهم من الطعام والشراب الذي طلبوه - هو قولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي الشُكر والثناء لله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

**********

## ٢. الربع الثاني من سورة يونس

الآية ١١: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾: يعني ولو يُعَجِّلُ اللهُ للناس إجابة دعائهم على أنفسهم بالشر كتعجيله لهم في إجابة دعائهم بالخير: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي لَهَلَكوا وماتوا، ولكنه سبحانه رؤوفٌ حليم، (واعلم أنه يَدخل في ذلك أيضاً: أفعال العباد التي تقتضي تعجيل العقوبة لهم في الدنيا قبل الآخرة، ولكنه سبحانه يُمهلهم ولا يُهملهم، ويَعفو عن كثيرٍ من حقوقه، فلو يُؤاخذهم سبحانه بما كسبوا، ما ترَكَ على الأرض مِن دابَّة).

♦ ومِن ذلكَ أيضاً: استعجالُ بعض المشركين بالعذاب في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾، فهو سبحانه لم يُعَجِّل للمشركين العذاب والشر في الدنيا استدراجاً لهم، لِيَزدادوا ضلالاً، فيَستحقوا بذلك عذاب الآخرة، ولذلك قال بعدها: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: أي فنترك الذين لا يؤمنون بلقائنا في تمرُّدهم وظلمهم وكُفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي يَترددون حائرين كالعُميان، لا يَجدون مَخرجاً مما هم فيه من الضلال والعَمَى.

♦ واعلم أنّ لفظ (الناس) الموجود في الآية هو اسمٌ عام لجميع الناس، ولكنْ لَمَّا كان الكلام على المشركين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾، ولَمَّا كانوا هم أول المستحقين للشر من الناس: قال تعالى بعدها: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

الآية ١٢: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾ أي استغاثَ بنا – لِنَكشف عنه شِدَّتَه – سواء كانَ مُضطجعًا على جنبه ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ وذلك على حسب الحال التي يكونُ عليها عند نزول البلاء به، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ أي استمرَّ على ما كانَ عليه من الغفلة والجحود قبل أن يُصيبه الضر، وترَكَ الشُكر لربه الذي فرَّج عنه كَرْبَه، كأنه لم يَكن هو ذاكَ الذي دعا بكَشْف ضُرِّه، ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: يعني وكما زُيِّن لهذا الإنسان استمراره على جُحوده وعِناده بعد أن كَشَفَ اللهُ الضُرَّ عنه، فكذلك زُيِّنَتْ أعمال المُسرفين على أنفسهم بالشِرك والمعاصي، فرأوها حسنة (إذ إنهم يَدعون الله وحده وقت الشدة، ويُشركون به وقت الرخاء).

الآية ١٣: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾ أي الأمم التي كانت ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ - أيها المشركون - ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ يعني لَّما أشركوا، ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات الواضحات من عند الله تعالى، وبالحُجَج التي تبيِّن صِدق مَن جاء بها ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾: أي فلم تكن هذه الأمم التي أهلكناها لِتُصَدِّقَ رُسُلها وتنقاد لها، فاستحقوا الهلاك، و ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: وبِمِثل ذلك الإهلاك نَجزي كل مُجرم مُتجاوز لحدود الله تعالى.

الآية ١٤: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ - أيها الناس - ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي تَخلُفون هؤلاء الظالمينَ بعد هَلاكهم ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ثم نُجازيكم على أعمالكم.

الآية ١٥: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ القرآنية ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ أي واضحات: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي قال المُنكِرون للبعث للنبي محمد: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأنْ تجعل الحلال حرامًا، والحرام حلالاً، وألاّ تَذكُر ما في القرآن مِن عيبٍ لآلهتنا واتِّهامٍ لنا بضَعف العقول، ﴿قُلْ﴾ لهم – أيها الرسول -: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أي مِن عند نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ يعني: وما أتَّبع في كل ما آمُرُكم به وأنهاكم عنه ﴿إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ من ربي، ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بتبديل كلامه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو عذابُ يوم القيامة.

الآية ١٦: ﴿قُلْ﴾ لهم – أيها الرسول -: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي لو شاء اللهُ ألاَّ أتلو عليكم هذا القرآن، لَمَا أرسلني به إليكم، ولَبَقِيتُ على الحالة التي كنتُ عليها مِن أول عمري ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾: أي فإنكم تعلمون أنني مَكثتُ فيكم مدة طويلة – وهي أربعين سنة – قبل أن يُوحيه إليَّ ربي، ويأمرني بإبلاغه.

♦ وأنتم تعلمونَ أيضاً أنني عِشتُ بينكم أُمِّياً، لا أقرأ ولا أكتب، ولم أشتهر يوماً ما بالبلاغة أو الخطابة أو الحِكمة أو قوة البيان، فدَلّ ذلك على أنّ هذا القرآن الذي تلوتُهُ عليكم، والذي أعْجَزَ أهل اللغة كلهم – رغم براعتهم في الفصاحة والبلاغة – هو وَحْيٌ من عند الله.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: يعني أفلا تستعملون عقولكم لِتعلموا أنّ تلاوته صلى الله عليه وسلم للقرآن هي دليل رسالته؟، إذ لو كان قد اشتهر قبل الوحي بالعِلم والبلاغة، لكانت حالته بعد الوحي معتادة، ولم يكن فيها إعجاز، فدَلَّ عدم تشابه الحالين على أنّ هذا الحال الأخير هو حال رباني خالِص، وأنّ هذا القرآن هو كلامُ الله تعالى.

الآية ١٧: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾: يعني فلا أحد أشد ظلمًا ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ - بأنْ زَعَمَ أنّ له ولداً أو شركاء - ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الواضحة، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾: يعني إنّ الذين أجرموا على أنفسهم بالشِرك والمعاصي لا يَنالون الفوز والفلاح في الدنيا ولا في الآخرة.

الآية ١٨: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يَعبدوه، ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إنْ عَبَدوه، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني إنما نَعبدهم ليَشفعوا لنا عند الله، ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: يعني أتُخبِرون الله تعالى - مِن أمر هؤلاء الشفعاء - بشيءٍ لا يَعلمه في السماوات أو في الأرض؟ فإنه لو كان فيهما شفعاء يَشفعون لكم عنده، لَكانَ أعلم بهم منكم، ولَأمَرَكم بعبادتهم ليُقرِّبوكم إليه، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الآية ١٩: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي جماعة واحدة مُتفقين على التوحيد الذي فَطَرَهم الله عليه، ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾: أي تفرَّقوا (وذلك بأنْ ثَبَتَ بعضهم على التوحيد، وأصَرّ بعضهم على الشِرك)، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بالعقوبة: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لَقَضى اللهُ بين الناس ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بأن يُهْلك أهل الباطل في الدنيا، ويُنَجِّي أهل الحق.

الآية ٢٠: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾: يعني هَلاَّ أنزل اللهُ على محمد معجزة محسوسة - كعصا موسى أو ناقة صالح - لِنَعلم بها صِدقه فيما يقول، ﴿فَقُلْ﴾ لهم - أيها الرسول -: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾: أي لا يَعلم الغيب إلا الله، فلو شاءَ سبحانه أن يَفعل ما طلبتم لَفعَلَ، وإن لم يَشأ لم يَفعل، ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ - أيها المُعاندون - قضاءَ الله تعالى بنَصْر مَن على الحق مِنّا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (وعلى يقينٍ مِن أنّ الله سينصرني عليكم).

الآية ٢١: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾: يعني وإذا أذقنا المشركين فرجًا ورخاءً بعد كربٍ وشدةٍ أصابتهم: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾: يعني إذا هم يُكَذِّبون، ويَستهزئون بآياتنا، ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ بكم وأسرع استدراجًا لكم، فـ ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ أي ملائكتنا الحافظين ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ أي يَكتبون عليكم تكذيبكم واستهزائكم وأنتم لا تشعرون (فكتابة الملائكة لِمَكْرهم: دليلٌ على مَكْر الله تعالى بهم، إذ يُبَيِّتُ لهم المَكْر الذي سيُجازيهم به على مَكْرِهم).

الآية ٢٢: ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ - أيها الناس - ﴿فِي الْبَرِّ﴾ على الدَوَابّ وغيرها، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ يعني: ويُسَيِّرُكم في البحر في السُّفُن، ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ أي في السُفن

﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾: أي وجَرَتْ السُفن بريحٍ طيبة، وفرح رُكَّابها بهذه الريح الطيبة: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي جاءت هذه السُفن ريحٌ شديدة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾: أي وأيقنوا أنّ الهلاك قد أحاط بهم: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: أي أخلصوا الدعاءَ لله وحده، ونَسوا ما كانوا يَعبدون من دونه، فقالوا: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ يارب ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ الشدة التي نحن فيها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: أي سنكونُ مِن الشاكرينَ لك على نِعَمك، فلا نُشرِك بك ولا نَعصيك.

الآية ٢٣: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾ اللهُ من الأهوال والشدائد: ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني إذا هم يُفسدون في الأرض بالظلم وبالمعاصي، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني إنما عاقبة ظُلمكم ومَعاصيكم راجعةٌ على أنفسكم، فإنكم تُمتَّعون ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الزائلة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثم نحاسبكم على أعمالكم.

♦ فالعبدُ لابد أن يَعلم أنه مهما طالَ عُمره، فإنه سيَرجع يوماً إلى ربه، ليَسأله على الصغير والكبير، على كل نعمةٍ وكل ذنب، ألاَ فلْيُعِدّ جواباً لسؤال المَلِك القهار، وذلك بكثرة الحمد والاستغفار، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

الآية ٢٤: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وما فيها مِن زينةٍ وأموال وغير ذلك: ﴿كَمَاءٍ﴾ أي كَمَثَل مطر ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي فنَبتتْ بهذا المطر أنواع كثيرة من النباتات التي نَمتْ وازدهرتْ حتى اشتبك بعضها ببعض، وأثمرتْ الكثير مِن مُختلَف الحبوب والثمار ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾: أي حتى إذا ظهر حُسْنُ وبهاء هذه الأرض (المزروعة)، ونضجتْ ثمارها ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾: أي ظن أهل هذه الأرض أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾: أي جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات والثمار ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾: أي جعلنا هذه النباتات والأشجار محصودة مقطوعة لا شيءَ فيها ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾: يعني كأنها لم تكن قائمة على وجه الأرض بالأمس ﴿فكذلك يأتي الفناء على دُنياكم، فيُهلِكها اللهُ تعالى في لحظةٍ خاطفةٍ من ليلٍ أو نهار﴾.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: يعني وَكما بَيَّنا لكم – أيها الناس – مَثَل هذه الدنيا وعرَّفناكم بحقيقتها، فكذلك نُبيِّن أدلتنا ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آيات اللهِ تعالى، فيَجتهدوا في فِعل ما يَنفعهم في الدنيا والآخرة.

الآية ٢٥: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾: يعني واللهُ يَدعوكم إلى جناته التي أعَدَّها لأوليائه، ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ مِن خَلْقه فيُوفقه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى الطريق الواضح الذي لا عِوَجَ فيه، وهو الإسلام.

**********

## ٣. الربع الثالث من سورة يونس

الآية ٢٦: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾: يعني إنّ للمحسنين – الذين اتقوا ربهم، وعَبَدوه بما شَرَع، وأحسَنوا معاملة خَلقِه – أولئك لهم ﴿الْحُسْنَى﴾ أي الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ عليها (وهي النظر إلى وجه الله تعالى في الجنة)، والدليل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال – كما في صحيح مسلم –: (إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، يقول اللهُ تعالى: تريدون شيئاً أَزِيدُكُم؟، فيقولون: ألم تُبَيِّض وجوهنا؟ ألم تُدخِلنا الجنة وتُنَجِّنا من النار؟، قال: فيُرفَعُ الحجاب، فيَنظرون إلى وجه الله، فما أُعْطُوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم)، ثم تَلا صلى الله عليه وسلم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾: أي لا يُغَطي وجوههم حُزنٌ ولا كآبة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾، بل يَملأها الفرح والسرور، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الآية ٢٧: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ - مِن ذنوب الشرك والمعاصي – فـ ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ أي لهم جزاءٌ يَسُوؤهم في جهنم بحسب السيئات التي عملوها، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: أي يُغطي وجوههم ذلٌ ومَهانة، ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: أي ليس لهم مِن مانعٍ يَمنعهم مِن عذاب الله تعالى، ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾: أي كأنَّ وجوههم قد أُلْبِسَتْ قِطَعاً مِن سَواد الليل المُظلِم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ بسبب شِركهم وكُفرهم.

الآية ٢٨، والآية ٢٩: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: أي اذكُر لقومك – أيها الرسول – يومَ نَحشر الخلق جميعاً للحساب والجزاء، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ أي الزَموا مكانكم ﴿أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ الذين كنتم تعبدونهم من دون الله لِترَوا ما يُفْعَلُ بكم، ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾: أي فَرَّقْنا بين المشركين ومَعبوديهم، حيثُ يقول المشركون: (رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ)، ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ﴾: ﴿مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ يعني: فاللهُ وحده يَشهد بأننا لم نكن نعلم ما كنتم تقولونه وتفعلونه، و ﴿إِنْ كُنَّا﴾ أي: ولقد كنَّا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ لا نشعر بها (وبهذا تبرَّأ شركاؤهم منهم، فلم يَدفعوا عنهم شيئًا من عذاب الله تعالى، بل حصلَ لهم الضررُ منهم، بعدَ ما ظنوا أنهم سيَشفعون لهم عند ربهم).

الآية ٣٠: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في موقف الحساب: ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾: أي تتذكر كل نفس أعمالها السابقة، وتَختبرها: هل هي ضارةٌ بها أو نافعةٌ لها؟، ثم تُجازَى بحَسبها، ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ

مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾: أي ورَجَعَ الجميع إلى الله سَيِّدُهُم الحق ليَحكم بينهم، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أي وغابَ عن المشركين ما كانوا يَعبدون مِن دون الله افتراءً عليه.

الآية ٣١، والآية ٣٢: ﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: ومَن يَرزقكم من الأرض بما يُنبته فيها من أنواع النبات والشجر الذي تأكلون منه أنتم وأنعامكم؟، ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ يعني ومَن يَملك أسماعكم وأبصاركم، إنْ شاءَ أبقاها لكم وإنْ شاءَ سَلَبَها منكم؟، ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: يعني ومَن الذي يَملِك الحياة والموت في الكون كلِّه؟، فيُخرِجُ الجسمَ الحي من الجسم ميت، كإخراج الأشجار والنباتات من الحبوب والنَوَى، ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كإخراج البيضة من الطائر، ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: يعني ومَن الذي يُدبِّر أمْر السماء والأرض وما فيهما من المخلوقات؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾: يعني فسوف يُجيبونك بأنّ الذي يَفعل ذلك كله هو اللهُ وحده، لأنهم يَعترفون بأنّ اللهَ تعالى ليس له شريكٌ في تلك الأفعال، ﴿فَقُلْ﴾ لهم - إلزامًا بالحُجَّة -: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: يعني أفلا تخافون عقاب الله إن عبدتم معه غيره؟!

♦ ثم قل لهم: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ أي المستَحِق وحده للعبادة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾: يعني فأيّ شيء غير الحق إلا الضلال؟، ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾: يعني فكيف تَنصرِفون عن عبادته إلى عبادة غيره من المخلوقين؟!

الآية ٣٣: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يعني: وكَما صَرَفَ اللهُ قلوب هؤلاء المشركين عن الحق إلى الضلال، فكذلك وَجَبَ حُكم الله وقضاؤه ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ - وهم الذين خرجوا عن طاعة ربهم إلى مَعصيته والكفر به واستمروا على ذلك - ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بوحدانية الله تعالى، ولا بنُبُوَّة محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بسبب إصرارهم وعِنادهم من بعد ما تَبَيَّن لهم الحق.

الآية ٣٤: ﴿قُلْ﴾ لهم - أيها الرسول -: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني: هل مِن مَعبوداتكم مَن يَبدأ خَلْقَ أيّ شيءٍ من العدم، ثم يُميته، ثم يُعيده كهيئته قبل أن يُميته؟، ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿اللَّهُ﴾ وحده الذي ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾: يعني فكيف تنحرفون عن عبادة المُتفرِّد بالخَلق إلى عبادة مَن لا يَخلق شيئًا؟!

الآية ٣٥: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي﴾ الناسَ ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ بالبيان والحُجَّة؟، ﴿قُلِ﴾: ﴿اللَّهُ﴾ وحده الذي ﴿يَهْدِي﴾ الضالَّ ﴿لِلْحَقِّ﴾ بالأدلة والبراهين، والإلهام والتوفيق، ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو اللهُ سبحانه وتعالى ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾ أي يُعبَد ويُطاع ﴿أَمَّنْ لَا يَهِدِّي﴾: يعني: أم تُتَّبَع هذه الأصنام التي لا تهتدي إلى شيءٍ لِعَجْزِها، كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، وبالطبع لا تستطيع أن تهدي عابديها إلى ما فيه تحصيل مقاصدهم، كالنصر على الأعداء وغير ذلك.

♦ وأما الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ فهو استهزاءٌ بهذه الآلهة التي لا تهتدي إلى الوصول إلى مكان، إلا إذا نقلها الناس ووضعوها في المكان الذي يُريدونه لها، ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بهذا الحُكم الباطل فتُسَوُّونَ بين اللهِ وخلقه؟

♦ ويُذَكِّرُني قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ بقصة فتاة – كانت على النصرانية – وكان عندهم نشيد في الإنجيل يحتوي على كثير من الألفاظ الخارجة عن الأدب والحياء، فكانت هذه الفتاة تستنكر أن يكون هذا كلام الله، وكانت تتألم كثيراً عندما تجد فتاة مُسلِمة تتلو القرآن في المواصلات بصوتٍ مرتفع، ولا تستحي من ذلك، بل تجد ثناءً من الناس عليها، أمَّا هي فكانت تستحي أن تقرأ هذا النشيد أمام الناس حتى لا يُظَنّ بها سُوء.

♦ وفي أحد المرات دخلتْ حُجرتها ليلاً، وأخذتْ تُحَدِّث الصور (التي يَرسمونها ويَظنون أنها للمسيح عليه السلام وأمه)، فقالت لهم: (هل هذا النشيد هو كلام الله؟) – وبالطبع لم ترُدّ عليها الصور – ثم صعدتْ إلى سطح العَقار الذي تسكن فيه، ثم نظرتْ إلى السماء وقالت: (يا ربّ يا حقيقي، هل هذا النشيد هو كلامك؟)، فلما قالت ذلك، سمعتْ أذان الفجر يقول: (اللهُ أكبر اللهُ أكبر)، فكرَّرتْ السؤال: (يا ربّ يا حقيقي، هل هذا النشيد هو كلامك؟)، فارتفع النداء من مسجد آخر: (اللهُ أكبر اللهُ أكبر)، فبَكَتْ وقالت: (نعم يارب، أنت أكبر وأعظم مِن أن تقول هذا الكلام).

♦ ثم نزلتْ بعد ذلك إلى حُجرتها لتنام، فسمعتْ إقامة الصلاة، وكانَ المسجد الذي بجوارهم يصلي فيه رجل كبير في السن، وكانَ دائماً يقرأ في صلاة الفجر بسورتَي الأعلى والإخلاص، أمَّا في هذا اليوم، فوجدتْ شابّاً يُصلي بقوْل الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ

قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ إلى آخر سورة المائدة.

♦ فعندئذٍ علمتْ أنّ الله تعالى هو الذي أرسل لها هذا الشاب لِيُجيبها على سؤالها، ولِيُبطِلَ لها ألوهية عيسى عليه السلام ، فبهذا هَداها الله تعالى إلى الإسلام عندما لجأتْ إليه سبحانه بصِدق.

الآية ٣٦: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾: أي وما يَتَّبع أكثر هؤلاء المشركين – في تَسمِيَتِهم للأصنام بالآلهة واعتقادهم بأنها تقرِّبهم إلى الله تعالى – إلا تخميناً وتقليداً لآبائهم بغير دليل، حتى اعتادوا على ذلك وظنوه حقاً وهو لا شيء، فـ ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي لا يُغني عن العِلم شيئاً، والمطلوب في العقيدة: العِلم لا الظن، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، وسيُعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

♦ واعلم أنّ الظن يأتي في القرآن بأكثر من معنى، فيأتي أحياناً بمعنى الاعتقاد الجازم الذي لا شك فيه، كقوله تعالى: (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ)، ويأتي أحياناً بمعنى الاعتقاد المشكوك فيه، كقول قوم نوح عليه السلام: (وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)، ويأتي أحياناً بمعنى الاعتقاد الخاطىء، كقوله تعالى: (إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ).

الآية ٣٧: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: وما كان لأحدٍ أن يأتي بهذا القرآن غير الله تعالى، لأنه لا يَقدِرُ على ذلك أحدٌ من الخَلق، ﴿وَلَكِنْ﴾ أنزله الله رحمةً للعالمين، وحُجَّةً على العباد أجمعين، فكانَ هذا القرآنُ ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي موافقاً للكتب السماوية السابقة (مُصدقًا لما فيها مِن صِحَّة، ومبيِّنًا لِما فيها من تحريف)، ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ – لأحكام الحلال والحرام وجميع الإخبارات الصادقة – ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في أنه تنزيلٌ ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الآية ٣٨: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾: يعني بل يقولون: (إنّ هذا القرآن قد افتراه محمد مِن عند نفسه)، مع أنهم يعلمون أنه بشر مِثلهم!! إذاً ﴿قُلْ﴾ لهم – أيها الرسول –: إذا كانَ هذا من كلام البشر ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي مِثل هذا القرآن في أسلوبه وهدايته، ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: أي واستعينوا على ذلك بكل مَن قَدَرْتم عليه مِن إنسٍ وجن ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم

(ولو كان ذلك مُمكِنًا: لادَّعَوا قدرتهم على فِعله، ولأتَوْا بمِثله، ولكنْ لَمَّا ظَهَرَ عَجْزُهُم: تبيَّنَ أنَّ ما زعموه باطل).

الآية ٣٩: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ أي سارَعوا إلى التكذيب بالقرآن وما فيه من الوعد والوعيد قبل أن يَتدبروا آياته، وقبل أن يفهموه حق فَهمه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾: أي وسوف يأتيهم ما وُعِدوا به في القرآن (من العذاب الذي يَؤول إليه أمْرهم يوم القيامة)، وسيَعلمون حينها مَن على الحق ومن على الباطل، ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بعذاب الله حتى ذاقوا بأسَه، ﴿فَانْظُرْ﴾ أيها الرسول ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، (وفي هذا إرشادٌ إلى التثبت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يُسارع بقبول شيءٍ أو رَدِّه، قبل أن يُحِيطَ به عِلمًا).

الآية ٤٠، والآية ٤١: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ يعني: ومِن قومك - أيها الرسول - ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي يُصَدِّق بالقرآن، ولكنه يُخفِي إيمانه خوفاً مِن أذى المشركين، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ كِبراً وعِناداً.

♦ ويُحتمَل أن يكون المعنى: أنّ اللهَ تعالى أرادَ أن يُصَبِّر رسوله على عدم إيمان قومه - رغم ظهور الأدلة وقوة البراهين - فقال له: (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ) أي: مِن المشركين مَن سيُؤمن بالقرآن مُستقبَلاً، (وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ) فيَموت على كُفره، (وبالفِعل، فقد آمَنَ عددٌ كبير من المشركين ولم يُؤمن عددٌ آخر).

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ الذين لا يؤمنونَ - بسبب اتِّباعهم لأهوائهم - فسيُجازيهم ربهم على ذلك بأشد العذاب، (وقد سَمّاهم اللهُ تعالى: (مفسدين) لأنهم يُفسدون عقول الناس ويَصدونهم عن الإيمان والتوحيد)، ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ أي استمرُّوا على تكذيبك ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ يعني: لي ثواب عملي (على تبليغي وطاعتي لله تعالى)، ولكم جزاء عملكم (على شِرككم وتكذيبكم)، ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾: يعني فأنتم لا تُسألون عن عملي، وأنا لا أُسأل عن عملكم.

الآية ٤٢، والآية ٤٣، والآية ٤٤: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ يعني: ومِنَ هؤلاء المشركين ﴿مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي يَسمعون تلاوتك للقرآن ولكنهم لا يَهتدون، ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾: يعني أفأنت - أيها الرسول - تَقْدر على إسماع الصُمّ؟ والجوابُ: لا، فكذلك أنت لا تقدر على هداية هؤلاء المشركين،

لأنهم كالصمِّ، حيثُ لا يَسمعونك سماع تدبُّر وانتفاع، ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني: وخصوصًا إذا كان عقلهم مَعدومًا، لأنهم قد سمعوا ما بِهِ تقومُ الحُجَّة عليهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي يَنظر إلى هَدْيِكَ وأخلاقك وإلى أدلة نُبُوَّتك الصادقة، ومع هذا فهم لا يَهتدون، بسبب تكَبُّرهم عن الانقياد للحق، ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾: يعني أفأنت تقدر على أن تَخلق للعُمْي أبصارًا يَهتدون بها؟! فكذلك أنت لا تقدر على هدايتهم، ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ يعني: وخصوصًا إذا كانوا فاقدي البَصيرة – وإنما هدايتهم بإذن اللهِ وحده – إذاً فلا تحزن عليهم.

♦ وفي هذا إشارة إلى أنّ عدم هدايتهم كان بسبب استحبابهم العَمَى على الهُدَى وإيثارهم للدنيا على الآخرة، ولذلك قال تعالى بعدها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي يُعَرِّضونها لغضب اللهِ وعقابه (إذ يأتيهم الحق فلا يَقبلونه، فيُعاقبهم اللهُ بالطبع على قلوبهم، والخَتم على أسماعهم وأبصارهم).

الآية ٤٥: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: واذكر أيها الرسول يومَ يَجمعهم اللهُ تعالى للبعث والحساب، فيَكونونَ ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا﴾ أي كأنهم لم يَمكثوا في الدنيا (وهم أحياء) ولا في قبورهم (وهم أموات) ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾، فكأنهم قد نسوا في تلك اللحظة كل ما مَرَّ بهم في الدنيا وكل ما مَرَّ بهم في القبر، وذلك لِمَا شاهَدوه من أهوال القيامة، ولِطُولِ وقوفهم في حر الشمس، ولِتَغطية العرق لجميع جسدهم، وبسبب رؤيتهم لجهنم التي سيُعذبون فيها (والإنسان إذا عَظُمَ خوفه: نَسِيَ كل ما مَرَّ به مِن نعيمٍ أو عذاب، خاصةً إذا قارَنَ ذلك بعذاب الآخرة الأبدي).

♦ وهم في هذا الموقف ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾: أي يَعرف بعضهم بعضًا كحالهم في الدنيا (واعلم أنّ هذا التعارف هو تعارف توبيخ، حيث يقول بعضهم لبعض: (أنت أضللتَني وأنت أعَنتَني على الكفر والشرك)، وغير ذلك، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ حيث استبدلوا النعيم المقيم بالعذاب الأليم، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي وما كانوا مُوَفَّقين لإصابة الرشد فيما فعلوا في الدنيا.

الآية ٤٦: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يعني: وإمَّا أن نُرِيَكَ – أيها الرسول – في حياتك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العقاب – كما حدثَ في بدر – ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نُرِيَكَ ذلك فيهم: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الحالتين بعد موتهم ﴿ثُمَّ﴾ نُصيبهم بالعذاب الذي نَعِدهم، والذي استحقوه بأفعالهم، فقد كانَ ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾، ولم يَخْفَ عليه شيءٌ من أفعالهم.

الآية ٤٧: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ أي: وقد كانَ لكل أمّةٍ – مَضَتْ – رسولٌ أرسله اللهُ إليهم لِيُوَحِّدوا ربهم ويُطيعوه، ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ في الآخرة لِيَشهد عليهم: ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

الآية ٤٨، والآية ٤٩: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي ويقول لك المشركون – أيها الرسول- : ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي متى تقوم هذه القيامة التي تَعِدوننا بها أنت ومَن اتَّبعك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾: أي لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرًا، ولا أجلب لها نفعًا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يَدفع عني مِن ضرٍّ أو يَجلب لي مِن نفع، إذاً فكيف لي أن أُعَجِّلَ لكم العذاب، إذا كانَ اللهُ يريدُ تأجيله؟! وكيف لي أن أحدِّدَ لكم موعده؟! ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: أي لكل قومٍ وقتٌ لانتهاء أجلهم، فـ ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً﴾ ليَعتذروا ويتوبوا، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي ولا يَتقدم أجلهم عن الوقت المعلوم.

الآية ٥٠، والآية ٥١: ﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول – لهؤلاء الذين يَستعجلونك بعذاب الله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ يعني أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا﴾ أي وقت نومكم بالليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ في وقت غفلتكم: أتطيقونه وتقدرون تحمُّله؟! إذاً فـ ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾: يعني فما الذي يَدفعكم أيها المشركون حتى تستعجلوا بنزول العذاب؟!، فإنه لا يَعودُ عليكم إلا بالهلاك.

♦ وقد كان المتوقَّع أن يقول لهم سبحانه: (ماذا تستعجلون منه؟)، أي بصيغة المُخاطَب، لأنّ الخطاب كانَ موجهاً إليهم في قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾، ولكنه قال لهم: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾، أي بضمير الغائب، وذلك تهميشاً لهم واحتقاراً لشأنهم، واللهُ أعلم.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾: يعني أبَعدَما وقع العذاب بكم: آمنتم به في وقتٍ لا يَنفعكم فيه الإيمان؟، وقيل لكم حينئذ: ﴿آلْآنَ﴾ تؤمنون به ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ إنكاراً له واستخفافاً به؟!

الآية ٥٢: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي العذاب الدائم، فـ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ في حياتكم من الشرك والمعاصي؟ (والسؤال للتقرير والتوبيخ، وجوابه: نعم).

## ٤. الربع الرابع من سورة يونس

الآية ٥٣: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾: يعني ويَسألك مُشركو قومك – أيها الرسول – عن العذاب يوم القيامة: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ يعني: نعم وربي إنه لَحَقٌّ لا شك فيه، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ولن تُعجِزوا الله تعالى في أن يَبعثكم ويُجازيكم، فأنتم في قبضته وسلطانه.

الآية ٥٤: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ - أي أشركَتْ بالله تعالى - ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني لو أنها امتلكتْ جميع ما في الأرض وكانَ في إمكانها أن تجعله فداءً لها من عذاب يوم القيامة: ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾، وإنْ فعلتْ ذلك، فلن يُقبَلَ منها، لأنه يومٌ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون، إلا مَن أتى الله بقلبٍ سليم.

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾: يعني وأخفى الذين ظلموا حسرتهم ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ واقعٌ بهم يوم القيامة، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي قضى الله بينهم بالعدل، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ لأن الله تعالى لا يُعاقِب أحداً بذنب أحد (إلا مَن كانَ سبباً في إضلال الناس ولم يَتُب عن ذلك الإضلال).

الآية ٥٥، والآية ٥٦: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ﴾ وحده جميع ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو سبحانه المُتفرِّد بالمُلك والإحاطة والتدبير، فيَفعل سبحانه ما يشاء في الوقت الذي يشاء، لا يَمنعه من ذلك مانع، ولهذا قال بعدها: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: يعني ألاَ إنّ لقاءَ الله تعالى وعذابه للمشركين كائِنٌ يوم القيامة لا مَحالة، لأنه سبحانه لا يُعارضه أحد في تحقيق ما يريد، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، (واعلم أنّ كلمة: (ألاَ) هي كلمة تأتي في أوّل الكلام للتنبيه، ومعناها: (انتبهوا لِما أقوله لكم)).

♦ ثم ذكَرَ سبحانه الدليل على قدرته على البعث والإحياء، فقال: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو وحده المُتفرِّد بالإحياء والإماتة، وأنتم تعلمون ذلك أيها المشركون، فلقد كنتم أمواتًا – وأنتم في العَدم – فأوجدكم سبحانه ونَفَخَ فيكم الحياة، فكذلك لا يُعجزه إحياء الناس بعد موتهم، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد موتكم للحساب والجزاء.

الآية ٥٧: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تُذكِّركم عقابَ الله وتُخوِّفكم وعيده، وهي هذا القرآن وما اشتمل عليه من الآيات والعِظات لإصلاح أخلاقكم وأعمالكم، ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: وهذا القرآنُ دواءٌ لِمَا في القلوب من الجهل والشرك وسائر الأمراض،

﴿وَهُدًى﴾ أي: وهو رُشدٌ لِمَن اتَّبعه مِن الخَلق، فيُنَجيه من الهلاك، ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي وجعله سبحانه رحمةً للمؤمنين – وخَصَّهم بتلك الرحمة لأنهم المنتفعون به، وأما الكافرون فلا يَزيدهم القرآن إلا هلاكاً، لأنه قد أقام الحُجَّة عليهم –، فآمِنوا أيها الناس بهذا القرآن وتداووا به، وتعَلَّموه واعملوا به: تَشْفوا وتَسعَدوا في الدنيا والآخرة.

الآية ٥٨: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أي بَلِّغْ أيها الرسول جميع الناس أنْ يَفرحوا بالقرآن وعلومه وبالإسلام وشرائعه، فـ ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِن متاع الدنيا الزائل (قال أبو سعيد الخُدري وعبد الله ابن عباس رضي الله عنهم: (فضْلُ الله: القرآن، ورحمته: الإسلام).

♦ فالقرآن هو أعظم فضل تفضَّلَ اللهُ به على عباده، والإسلام – وما يَحتوي عليه من عبادة الله تعالى ومَعرفته ومَحَبَّته – هو أعظم رحمة للناس، لأنه المُنَجِّي لهم من عذاب جهنم، المؤَدِّي بهم إلى السعادة والسرور في جنات النعيم.

الآية ٥٩: ﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول – لهؤلاء المُعاندين: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾: يعني أخبروني عن هذا الرزق الذي خلقه اللهُ لكم من الحيوان والنبات وغير ذلك ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أي فحَلَّلتم بعضه لأنفسكم وحَرَّمتم بعضه، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ بذلك التحليل والتحريم؟! ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾: يعني أم تَكذبونَ على اللهِ تعالى فيما تقولون؟ (والغرض من هذا الاستفهام: هو تقريرهم بذلك الإثم العظيم وتوبيخهم عليه).

الآية ٦٠: ﴿وَمَا ظَنُّ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ - بتحريم ما أحَلَّهُ الله وتحليل ما حَرَّمَه الله – فما ظنهم أنّ اللهَ فاعلٌ بهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟ أيَحسبون أنه يَصفح عنهم ويَغفر لهم؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بترْكِهِ مُعاجلة مَن افترى عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا وإمهاله إياه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرونَ اللهَ على ذلك الإمهال – بأن يتوبوا ويَنتهوا عَمّا هم فيه –، بل يَزيدهم هذا الإمهال طغياناً.

الآية ٦١: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ - أيها الرسول - ﴿فِي شَأْنٍ﴾ مِن شئونك ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي: وما تتلو مِن كتاب اللهِ مِن آيات ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ يا أمّة محمد ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ خيراً كانَ أو شراً: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي حُضوراً مُطَّلِعين عليكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي وقت ابتدائكم في ذلك العمل واستمراركم عليه، فنحفظه عليكم ونَجزيكم به.

♦ فراقِبوا الله في أعمالكم، وأدُّوها بإخلاصٍ وإتقان، وجدٍّ واجتهاد، وإياكم وما يُغضِبُ اللهَ تعالى، فإنه مُطَّلِعٌ عليكم، عالِمٌ بظَواهركم وبَواطنكم، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ أي ما يَغيبُ عن عِلم ربك ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي ما يُعادل وزن ذرةٍ ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا﴾ مُثبَتٌ ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي في كتابٍ عند اللهِ واضح، أحاطَ به عِلمه وكَتبه قلمه (وهو اللوح المحفوظ).

الآية ٦٢، والآية ٦٣، والآية ٦٤: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة مِن عقاب اللهِ تعالى، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من حظوظ الدنيا.

♦ ثم وضَّحَ سبحانه صفات هؤلاء الأولياء، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي باللهِ ورسوله وعملوا بشرعه ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ اللهَ بامتثال أوامره، واجتناب معاصيه، فأولئك ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ مِن الله تعالى ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما يَسرُّهم، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بالجنة، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: أي لا يُخلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ولا يُغَيِّرُه، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه اشتمل على النجاة مِن كل مَحذور، والفوز بكل مطلوبٍ ومحبوب (وعلى هذا فكُلُّ مؤمنٍ تقيٍّ هو وليٌّ للهِ تعالى، ولكنْ تختلف درجة ولايته بحسب إيمانه وتقواه).

الآية ٦٥: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾: أي ولا يَحزُنك – أيها الرسول – قول المشركين في ربهم بأنّ له شركاء؛ ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: يعني فإنّ اللهَ تعالى هو المُتفرِّد بالقوة الكاملة والقدرة التامة في الدنيا والآخرة، فلن يَضُرَّه سبحانه قولهم وافتراؤهم، و ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم ونيَّاتهم، وسيُجازيهم عليها.

♦ ويُحتمَل أن يكون المعنى: (ولا يَحزُنك أيها الرسول قول المُكَذِّبين فيك بأنك تفتري الكذب على ربك، فإنَّ أقوالهم لا تضرك شيئًا، وإذا كنتَ تظن أنهم أهْلُ عزة، فاعلم أنّ عِزَّتهم محدودة وزائلة، والْعِزَّةَ الحق للهِ تعالى وحده، يُعطِيها مَن يشاء، ويَمنعها عَمَّن يشاء، وسوف يُعطيها لك وللمؤمنين ويَنصركم عليهم، وهو سبحانه السميع العليم، فاكتَفِ بعِلم الله وكفايته، فإنّ مَن يتوكل على اللهِ فهو حَسْبُه).

الآية ٦٦: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ﴾ وحده جميع ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجن وغير ذلك من المخلوقات، فليس لأحدٍ غيره في هذا الكون شيئاً، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني: وما يَتَّبع المشركون في الحقيقة شركاءَ لله تعالى، فإنه ليس له شريكٌ أصلاً، و ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ يعني: وما يَتَّبعون ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الناتج عن التخمين واتِّباع الآباء بغير دليل، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يعني: وما هم إلا يَكذبون فيما يَنسبونه إليه سبحانه.

الآية ٦٧: ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أيها الناس، وتستريحوا من التعب في طلب الرزق، ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: أي وجعل سبحانه النهار؛ لِتُبصِروا فيه، ولِتسعَوْا في طلب رزقكم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾: يعني إنَّ في اختلاف حال الناس في الليل والنهار، وفي عناية الله تعالى بمصالح خلقه: ﴿لَآيَاتٍ﴾ على أنّ الله وحده هو المستحق للعبادة.

♦ ثم خَصَّ سبحانه الذين يَنتفعون بهذه الآيات بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يَسمعون هذه الحجج، ويَتفكرون فيها.

♦ ومِن لطيف ما يُذكَر أنّ الله تعالى شاءَ أن يأتي بالأسلوب القرآني المُعجِز في قوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، فقد أثبت العلم الحديث أنّ العين لا تُبصِرُ بذاتها، وإنما تُبصِرُ بعد انعكاس الضوء عليها (بدليل أنه إذا كانَ هناك شخصٌ يقف في حجرةٍ بها مصباح مُضيء، وأنت تقف في الظلام فإنك تراه، وإذا كان نفس الشخص يقف في الظلام فأنت لا تراه، إذاً: فإنّ ضوء المصباح هو الذي عَكَسَ الرؤية إلى عينك فأبْصَرَتْ)، وكذلك فإنّ النهار هو المُبصِر؛ لأنه جاء بالضوء اللازم لِيَنعكس إلى العيون حتى تستطيع الإبصار، فسبحان مَن عَلَّمَ محمداً صلى الله عليه وسلم – النبي الأُمِّي – هذه الحقيقة.

الآية ٦٨: ﴿قَالُوا﴾ أي قال المشركون: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ - وذلك كقولهم: الملائكة بنات الله، أو المسيح ابن الله، أو عزيرٌ ابن الله - ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تقدَّسَ اللهُ عن ذلك كله وتنزَّه، فـ ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن كل ما سواه، لأنه سبحانه ليس مُحتاجًا إلى ولدٍ كما يحتاجُ البشر، (فإنَّ البشر يحتاجون إلى ولدٍ يَخدمهم ويَرعاهم في كِبَرهم، وعند مَرَضهم، وحالَ ضَعفِهم)، أما اللهُ تعالى فهو القوي الغني الذي لا يحتاجُ إلى شيءٍ مما يحتاجُه البشر، ولأنه سبحانه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فكل ما في السماوات والأرض ملْكُه وعبيده، فكيف يكونُ له ولدٌ مِمَّن خَلَق، وكُلُّ شيءٍ مملوكٌ له؟!

♦ فهذا أكبر دليل على بُطلان نسبة الولد لله تعالى، إذ هو خالقُ كل شيء، فهل يُقالُ لِمَن خَلَقَ شيئاً أنه وَلَدَهُ؟! لو صَحَّ هذا لقالوا لِكُلّ مَن صَنَعَ شيئاً إنه أبو المصنوع، ولا يوجد قائلٌ بهذا أبداً، إذاً فأيُّ

معنى لِنسبة الولد إليه سبحانه، إلا تزيين الشياطين للباطل حتى يَقبله أولياؤهم من الإنس؟!، ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾: أي ليس عندكم دليلٌ على ما تفترونه من الكذب، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟!

الآية ٦٩، والآية ٧٠: ﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول – لقومك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ - بأن يَنسبوا له الولد أو الشريك - ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي لا يَنالون الفوز والفلاح في الدنيا ولا في الآخرة، إنما هو ﴿مَتَاعٌ﴾ قصير يُمَتَّعونه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بعد انتهاء آجالهم ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ في جهنم، جزاءً ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

**********

## ٥. الربع الخامس من سورة يونس

الآية ٧١: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾: أي اقصُص – أيها الرسول – على كفار "مكة" خبر نوح عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ يعني إنْ كانَ ثَقُلَ عليكم وجودي بينكم، وضاقت أنفسكم من دَعْوَتي لكم ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ لكم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وحُجَجه: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي فعلى الله وحده اعتمادي، وبه ثقتي في أن يَحفظني مِن شَرِّكم، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾: أي فأعِدُّوا لي ما استطعتم مِن مَكرٍ وقوة حتى تؤذوني، وادعوا أيضاً شركاءكم المزعومين ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي لا تجعلوا كيدكم لي في الخفاء، بل اجعلوه ظاهرًا منكشفًا، ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾: أي اقضوا عليَّ بالعقوبة وأَصِيبوني بالسُوء الذي في إمكانكم ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾: أي لا تُمهِلوني، بل عَجِّلوا بعقوبتي، فإني لا أهتم بآلهتكم، لاعتمادي على حِفظ الله وحده.

الآية ٧٢، والآية ٧٣: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾: أي فإنْ أعرضتم عن دَعْوَتي: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾: يعني فإنني لم أطلب منكم أجرًا على دَعْوَتي لكم حتى تُعرِضوا؛ ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾: أي فثَوابي عند ربي وأجري عليه سبحانه، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي المُنقادين لِحُكم الله تعالى وأوامره.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي استمرُّوا على تكذيبه، فدَعانا لِنُصرَته ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ من المؤمنين ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ أي في السفينة، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أي يَخْلُفون هؤلاء المُكذِّبين، ويَسكنون الأرض بعدهم – جيلاً بعدَ جيل –، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾: أي فتأمل - أيها الرسول – كيف كان عاقبة القوم الذين أنذَرَهم رسولهم بعذاب الله فكذَّبوه.

♦ واعلم أنّ في تلاوة هذا القَصَص فائدتان: (الأولى: تصبير الرسول صلى الله عليه وسلم على ما يَلقاه مِن أذى قومه، والثانية: تنبيه المشركين وتحذيرهم من الاستمرار على الشِرك والعصيان حتى لا يَحِلّ بهم مِن العذاب ما حَلّ بغيرهم).

الآية ٧٤: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي أرسلنا مِن بعد نوحٍ ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ (كصالح وهود وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم) ﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي فجاء كُلُّ رسولٍ قومه بالمعجزات الدالَّة على صِدق رسالته، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ﴾: يعني فلم يُقِرّ أقوامهم بالتوحيد، كما

لم يُقِرّ به قومُ نوحٍ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ﴾: يعني وكما ختمنا على قلوب هؤلاء الأقوام – لإصرارهم على الشرك وعدم توبتهم منه –، فكذلك نَختم ﴿عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ الذين تجاوزوا حدود الله تعالى في كل زمان (عقوبةً لهم على شِركهم وعلى مخالفتهم لرسلهم).

♦ ويُحتمَل أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: فما كان اللهُ لِيَهديهم للإيمانِ ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي بسبب تكذيبهم بهذه الآيات الواضحة عندما جاءتهم أول مرة (جزاءً لهم على رَدِّهم الحق)، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والله أعلم.

الآية ٧٥، والآية ٧٦: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ - أي مِن بعد هؤلاء الرسل – أرسلنا ﴿مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ - وهم أشراف قومه - ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي بالمعجزات الدالّة على صِدقهما، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾: أي فاستكبر فرعون وأشراف قومه عن قَبول الحق ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ حيث أفسدوا القلوب والعقول، وسفكوا الدماء وعذَّبوا الضعفاء، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وهي الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام (وعددها تسع)، ﴿قَالُوا﴾ أي قال فرعونَ وقومَه – ليتخلصوا من الهزيمة التي أصابتهم أمام قومهم - : ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي إنَّ هذا لَسِحرٌ ظاهر.

الآية ٧٧: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَى﴾ مُتعجبًا: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ إنه سِحر؟! ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾؟! أي انظروا إلى وَصْف ما جئتكم به، تجدوه الحق، ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ يعني: واعلموا أنّ الساحرين لا يُفلحون ولا يَنتصرون، لأنّ صَنيعهم ما هو إلا تخييل وتمويه لعيون الناس، (وقد عَلِموا بعد ذلك – وظَهَرَ لكل أحد - مَن الذي سَحَرَ أعين الناس، ومَن الذي أبْطَلَ السحر بما معه من الحق فأفلح وانتصر).

الآية ٧٨: ﴿قَالُوا﴾ أي قال فرعون ومَلؤه لموسى عليه السلام: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي لِتَصْرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾؟، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي وحتى يَكونُ لكما – أنت وهارون – العظمة والسلطان في أرض "مصر"؟، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾: يعني وما نحن بمقرِّين لكما بأنكما رسولان أرسلكما اللهُ إلينا لنعبده وحده ولا نُشرك به.

الآية ٧٩: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لجنوده: ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي مُتقِن للسحر.

الآية ٨٠، والآية ٨١، والآية ٨٢: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾: ﴿أَلْقُوا﴾ على الأرض ﴿مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ مِن الحبال والعِصِيِّ التي معكم، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى﴾ لهم: إنَّ ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ﴾ وألقيتموه هو ﴿السِّحْرُ﴾، و ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ ويَفضحكم أمام الناس ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين أفسدوا في الأرض بالشِرك والمعاصي، ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾: أي وسوف يُظهِرُ اللهُ الحقَّ الذي جئتُكُم به، وسيُعلِيهِ على باطلكم ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي بأمره، إذ يقولُ سبحانه للشيء كُن فيكون ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

الآية ٨٣: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي بعض الشباب من بني إسرائيل، آمَنوا بموسى عندما انتصر على السَحَرة، وكذلك آمَنَ عدد قليل من آل فرعون (كامرأة فرعون ومُؤمن آل فرعون)، ولكنهم كتموا إيمانهم، وهم ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ أي وهم خائفون من فرعون أن يَفتنهم بالعذاب، وخائفونَ أيضاً من سادة قومهم أن يُحَرِّضوا فرعون عليهم لِيُعَذبهم، وهذا التحريض كقول الملأ لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾، فقال لهم فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾، إذ كانَ أمْرُ العذاب بيد فرعون لا بيد الملأ، ولعل هذا هو السبب في أنّ الله تعالى قال: ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ بضمير المُفرَد، ولم يقل: ﴿أَنْ يَفْتِنُوهُمْ﴾، ولأنّ إنكار الملأ عليهم إنما هو لِخَوفهم من فرعون أن يَسلبهم رئاستهم، فلذلك انحصر الخوف في فرعون، والله أعلم).

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ أي ظالمٌ مستكبر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر المليئة بالخيرات والنعم، ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحد في الكفر والفساد.

الآية ٨٤، والآية ٨٥، والآية ٨٦: ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ أي فثِقوا بنصره، وسَلِّموا لأمْره ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ يعني إن كنتم خاضعينَ له بالطاعة والانقياد، ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي عليه اعتمدنا وإليه فوَّضنا أمْرَنا، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تنصر الكافرين علينا، فيكون ذلك فتنةً لنا عن الدين، أو يُفتَن الكفارُ بنَصْرهم، فيقولوا: (لو كان هؤلاء على الحق، ما غُلِبوا)، ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وهم فرعون ومَلَئِه؛ لأنهم كانوا يُكَلِّفون بني إسرائيل بالأعمال الشاقة.

الآية ٨٧: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾ هارون ﴿أَنْ تَبَوَّآَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي اتَّخِذا لقومكما بيوتًا في "مصر" تكونُ مَساكن ومَلاجئ لتحتموا بها مِن بطش فرعون وقومه، ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي أماكن تُصَلُّون فيها عند الخوف ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أدُّوها في أوقاتها على الوجه الذي شَرَعَه اللهُ لكم، ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا موسى ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر في الدنيا وبالجنة في الآخرة.

الآية ٨٨: ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ - وهو يدعو ربه - : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آَتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلم يَشكروا نِعَمَكَ ﴿رَبَّنَا﴾، وإنما استعانوا بهذه الأموال ﴿لِيُضِلُّوا﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِكَ﴾، ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أي أتلِفها عليهم (إمَّا بالهلاك، وإمَّا بجَعْلها حجارة)، حتى لا يَنتفعوا بها، ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي اختم على قلوبهم حتى لا تنشرح للإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

الآية ٨٩: ﴿قَالَ﴾ اللهُ تعالى لهما: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ في فرعون وملئه وأموالهم (وقد كان موسى يدعو، وهارون يُؤَمِّن على دعائه، ومِن هنا نُسِبَتْ الدعوة إلى الاثنين في قوله تعالى: ﴿دَعْوَتُكُمَا﴾).

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على دينكما، واستمِرَّا على دعوة فرعون وقومه إلى توحيد اللهِ وطاعته ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي لا تسلكا طريق مَن لا يَعلم حقيقة وعدي ووعيدي، (واعلم أن النون التي في قوله: ﴿ولا تَتَّبِعَانِّ﴾ تُسَمَّى نون التوكيد).

**********

## ٦. الربع الأخير من سورة يونس

الآية ٩٠، والآية ٩١، والآية ٩٢: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾: أي قطعنا ببني إسرائيل البحر حتى جاوَزوه إلى شاطئه سالِمين، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ أي مَشوا في البحر وراءهم ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي ظلمًا واعتداءً بغير حق، (لأنه ليس له أيّ حق في أن يَمنعهم من الخروج مِن بلده إلى بلدهم).

﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾: أي حتى إذا أحاط الغرق بفرعون: ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني: وأنا من المستسلمين لهذا الإله بالانقياد والطاعة، ﴿آلْآنَ﴾ يا فرعون عندما نزل بك الموت تقرُّ لله بالعبودية ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾: أي وقد عصيته قبل نزول عذابه بك ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الصادِّين عن سبيله! فلا تنفعك التوبة ساعة الاحتضار، ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي سنُنَجِّي جسدك من الغرق، لِيَنظر إليك مَن كَذَّبَ بهلاكك، و ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾: أي لتكون لِمن بعدك من الناس عِبرةً يَعتبرون بك، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (فلا يَتفكرون فيها ولا يَعتبرون).

الآية ٩٣: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: أي أنزلنا بني إسرائيل منزلاً صالحًا طيباً في أرض فلسطين وبلاد الشام، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: أي رزقناهم الرزق الحلال الطيب من خيرات هذه الأراضي المباركة، ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾: أي فما اختلف اليهود في أمْر دينهم إلا مِن بعد ما جاءهم العلم المُوجب لاجتماعهم (ومِن ذلك ما اشتملت عليه التوراة من الإخبار بنُبُوَّة محمد صلى الله عليه وسلم)، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ - أيها الرسول – سوف ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أمْرك، فيُدخِل المُكذبين بك النار، ويُدخِل المؤمنين بك الجنة (كعبد الله بن سلام وغيره).

الآية ٩٤، والآية ٩٥: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ أي في شأن بني إسرائيل مِن أنهم يَعلمون أنك رسول الله: ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ مِمَّن آمَنَ بك من علماء التوراة والإنجيل المُنصِفين – كعبد الله بن سَلام وغيره – فإنّ ذلك ثابتٌ في كُتبهم، ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ بأنك رسول الله، وأنّ هؤلاء اليهود والنصارى يَعلمون صحة ذلك، ويَجدون

صفتك في كُتبهم، ولكنهم يُنكرون ذلك كِبراً وحسداً، لأنهم كانوا يرجونَ أن يكون الرسول الخاتَم مِن بني إسرائيل وليس من العرب.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: أي فلا تكونن من الشاكِّين في صحة ذلك، (واعلم أنّ هذا الخطاب من باب الفرض، فقد ثبت عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال – في هذه الآية –: (لم يَشُكّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسأل)، وكذلك فإنّ هذه الجملة: (فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) تُعَدُّ دافعاً لأهل الكتاب أن يَسألوا علمائهم الصادقين ويؤمنوا.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (فهذه الآيات – وإن كانت خطابًا للرسول صلى الله عليه وسلَّم - فإنها موجَّهة للأمَّةِ عموماً، وإلاَّ، فكيف يَشُكّ الرسول صلى الله عليه وسلم وقد صعد به جبريل عليه السلام إلى سِدرة المنتهى – بعد السماء السابعة – وكَلَّمَ ربه سبحانه وتعالى ورأى الجنة والنار بعينيه؟!).

♦ واعلم أنّ كل خطاب من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، هو خطاب لجميع الأمّة، إلا ما كان خاصّاً بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، كقول الله تعالى له: (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ).

الآية ٩٦، والآية ٩٧: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ بطَرْدهم مِن رحمته – بسبب إصرارهم وعِنادهم –: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بحُجَج الله تعالى، ولا يُقرُّون بوحدانيته، ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾، إذ لا تزيدهم الآيات إلا طغياناً، ثم يَستمرون على ذلك ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ واقعاً بهم، فحينئذٍ يؤمنون، ولكنْ لا يَنفعهم إيمانهم.

الآية ٩٨: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾: يعني إنه لم ينفع أهلَ قريةٍ إيمانُهُم عند نزول العذاب بهم ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ عليه السلام، فإنهم ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾ وصَدَقوا في توبتهم – عندما أيقنوا أن العذاب نازلٌ بهم ورأوا علاماته - : ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ - أي عذابَ الذل والمَهانة - ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وذلك بعد أن كانَ العذابُ قريباً منهم، ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾: أي وتركناهم في الدنيا يتمتعون بالحلال الطيب إلى وقت انتهاء آجالهم، (فلماذا لا يَتوبُ أهل مكة كما تابَ قوم يونس؟!).

♦ ولعل الحِكمة مِن رفع العذاب عن قوم يونس دونَ باقي الأمم: أنّ اللهَ تعالى عَلِمَ أنَّ غيرهم من المُهلَكين لو رُفِعَ عنهم العذاب: لَعَادوا لِمَا نُهُوا عنه، وأما قوم يونس، فإنه سبحانه عَلِمَ أنّ إيمانهم سيَستمر، وقد استمر فعلاً وثَبَتوا عليه.

الآية ٩٩، والآية ١٠٠: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ بما جئتهم به – أيها الرسول –، فهو قادرٌ على ذلك، ولكنه سبحانه يَهدي مَن يشاء ويُضِلّ مَن يشاء وَفْق عدله وحِكمته، ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي ليس في استطاعتك أن تفعل ذلك، ولم يُكَلِّفك اللهُ به، (واعلم أنّ هذا الاستفهام: (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ)؟ يُسَمَّى استفهام إنكاري، أي يُنكِرُ اللهُ تعالى على رسوله شدّة حِرصه على إيمان قومه، حتى كأنه يريد إكراههم على الإيمان بما جاء به من التوحيد).

♦ وقال تعالى له: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وتوفيقه، إذاً فلا تُهلِكْ نفسك حُزناً عليهم (فما عليك إلا البلاغ الواضح، وأنْ تَعرِض الإيمان على الناس عَرْضاً لا إجبارَ معه)، فمَن آمَن: نجا، ومَن لم يؤمن: هَلَك، ﴿وَيَجْعَلُ﴾ سبحانه ﴿الرِّجْسَ﴾ أي العذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إذ لو عَقِلوا لَمَا كفروا بربهم وعصوه وهو خالقهم ورازقهم ومالِكُ أمْرِهم، (ولأنَّ مَن يُشرِك بربه صَنَماً في عبادته: لا يُعَدُّ من العاقلين).

الآية ١٠١:، والآية ١٠٢: ﴿قُلِ﴾ - أيها الرسول – لقومك: ﴿انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي تفكَّروا واعتبروا بما في السماوات والأرض من آيات اللهِ الدالّة على وحدانيته، ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: ولكنّ الآيات المُنذِرة بعقاب اللهِ لا تنفع قومًا يُصِرُّونَ على الكفر بها؛ وذلك لِعِنادهم واتِّباعهم لأهوائهم، ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا﴾ يومًا يَرون فيه العذاب ﴿مِثْلَ أَيَّامِ﴾ المكذبين ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي الذين مَضَوا قبلهم؟ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ ما كَتَبَ اللهُ عليكم من العذاب إن لم تتوبوا إليه وتُسلِموا، فـ ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ وعلى يقينٍ بمجيئ ذلك العذاب في الدنيا أو في الآخرة، وذلك بحسب إرادة اللهِ بكم.

الآية ١٠٣: ﴿ثُمَّ﴾ إذا جاءهم ذلك العذاب في الدنيا: ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بهم، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكما نَجَّينا المؤمنين السابقين من العذاب، فكذلك نُنَجِّيك – أيها الرسول - ومَن آمَنَ بك، إذا أراد اللهُ إنزال العذاب بقومك.

الآية ١٠٤، والآية ١٠٥: ﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول - لقومك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ الذي دَعَوتُكُم إليه - وهو الإسلام - وترجون تحويلي عنه: ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ﴾: أي فاعلموا أنني لن أعبد الأصنام التي تعبدونها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي أعبد الله الذي خلقكم، وهو الذي يُميتكم ويَقبض أرواحكم (فهو المستحق وحده للعبادة، إذ هو الذي بيده الإحياء والإماتة)، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي مِن المُقِرِّينَ بوحدانيته، العاملينَ بشَرعه، ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: وأُمِرْتُ أن أستقيمَ على دين الإسلام وألاَّ أميلَ عنه أبداً، وقيل لي: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

♦ وإنما خَصَّ تعالى الوجه بالاستقامة في قوله: (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ) لأنه أكرم الجوارح وأشرفها، وبه يَحصُل التوجُّه إلى كل شيء، فإذا خضع وجه العبد لله: خضعتْ له جميع جوارحِه، فلا يُشرك بعبادته أحدًا.

الآية ١٠٦: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ ذلك ﴿فَإِنَّكَ إِذًا﴾ تكونُ ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بتعريضها لغضب الله وعذابه.

الآية ١٠٧: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾: يعني وإن يُصِبْكَ اللهُ بشدةٍ أو بلاء: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ جلَّ وعلا، ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾: يعني وإن يُرِدْ أن يُنزلَ عليك نعمةً - مِن رزقٍ أو رخاء أو نصرٍ أو صحة - فلن يَمنعها أحدٌ عنك، ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾: أي يُصِيبُ سبحانه بالخير والضُرّ ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

♦ وقد كانَ المُتوَقَّع بعد أنْ ذَكَرَاللهُ تعالى قدرته على الإصابة بالخير والضُرّ، أن يقول بعدها: (وهو على كل شيءٍ قدير)، ولكنه تعالى قال: (وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)، وذلك لأنّ إعطاءه للخير هو فضلٌ منه سبحانه ورحمة لعباده، إذ لولا غُفرانه لسيئاتهم وتقصيرهم وغَفلاتهم، لَمَا كانوا أهلاً لهذا الخير، ولَمَسَّهم اللهُ بضرٍ شديد في الدنيا والآخرة.

الآية ١٠٨: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي قد جاءكم الرسول بالقرآن الذي فيه هِدايتكم، ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ أي استمسك بهُدى الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ يعني فإنما ثمرة عمله ترجع إليه، ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾: يعني ومَن انحرف عن الحق وأصرَّ على الضلال، فإنما ضلاله وضرره يعود على نفسه، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾: أي وما أنا عليكم بحفيظ ولا رَقيب

حتى تكونوا مؤمنين، وإنما أنا رسولٌ أبلِّغكم ما أُرْسِلْتُ به إليكم (واعلم أنّ الوكيل هو مَن يُوَكَّل إليه الأمر لِيُدَبِّرَه).

الآية ١٠٩: ﴿وَاتَّبِعْ﴾ أيها الرسول ﴿مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ من ربك، فاعمل بِهِ ﴿وَاصْبِرْ﴾ على طاعة اللهِ تعالى، واصبر على أذى من آذاك في تبليغ رسالته ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ أي حتى يَقضي اللهُ أمْرَهُ فيهم وفيك، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾؛ لأنّ حُكمه سبحانه مُشتمِلٌ على العدل التام، أمّا غَيره تعالى فقد يُصِيبُ في قوله ويُخطئ، وقد يَعدِلُ في حُكْمِهِ ويَظلم.

## الفهرس

سلسلة كيف نفهم القرآن؟ ..... ١
١. الربع الأول من سورة يونس ..... ٢
٢. الربع الثاني من سورة يونس ..... ٦
٣. الربع الثالث من سورة يونس ..... ١١
٤. الربع الرابع من سورة يونس ..... ١٨
٥. الربع الخامس من سورة يونس ..... ٢٣
٦. الربع الأخير من سورة يونس ..... ٢٧